

سؤال النهضة في كتاب (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) لمحمد السنوسي الزاهري
The Question of the Renaissance in the Book of (Algerian Poets in the Present
Era) by Muhammad Al-Senussi Al-Zahri

بختي البشير

Bakhti Bachir

جامعة محمد بوضياف المسيلة (الجزائر)

University of Mohamed Boudiaf M'sila (Algeria)

bachir.bakhti@univ-msila.dz

تاريخ النشر: 2023/06/02

تاريخ القبول: 2023/01/24

تاريخ الإرسال: 2022/08/02

ملخص البحث

يبدو أن معظم أشعار كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر لمحمد الهادي السنوسي الزاهري، تشير إلى سؤال النهضة، الذي أرق علماء الإصلاح ورجال الفكر والثقافة والإبداع الأدبي في الجزائر المستعمرة، التي وجدت شخصيتها تضمحل وتندمج شيئاً فشيئاً في الحضارة الغربية. ويسعى البحث إلى معرفة الخلفيات الفكرية، التي انطلق منها شعراء كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر. وكيف وقع سؤال النهضة في إبداعهم الشعري. وفقد اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي، لأنه يساعد على وصف الظاهرة المدروسة وتحليلها. ومن نتائج البحث المستخلصة نورد منها ما يلي: اهتم شعراء الكتاب بالوسائل التي تحقق النهضة؛ كالإصلاح الديني والسياسي والتعليم وتربية المرأة والصحافة. الكلمات المفتاح: نهضة، إصلاح، علم، صحافة، امرأة، تعليم.

Abstract :

It seems that most of the poems of the book "Algeria's Poets in the Present Age" by Al-Zahri refer to the question of the Renaissance, which troubled reform scholars and men of thought, culture and literary creativity in colonial Algeria, which found its personality fading and gradually merging into Western civilization. The research seeks to know the intellectual backgrounds from which the poets of the book started and how the question of the Renaissance fell on their poetic creativity.

For the preparation of this research, I relied on the descriptive-analytical approach, because it helps to describe and analyze the phenomenon studied.

For the preparation of this research, I relied on the descriptive-analytical approach, because it helps to describe and analyze the phenomenon studied.

bachir.bakhti@univ-msila.dz : بختي البشير *

Among the results of the research, we mention the following: The book poets were interested in the means that achieve renaissance.

Keywords: renaissance, reform, science, journalism, women, education.



1 - مقدمة:

يعالج البحث سؤال النهضة، الذي ما زال يلقي اهتماما ورواجا لدى نخبة المفكرين والمثقفين والأدباء في أنحاء العالم العربي والإسلامي، ويؤرق مضاجعهم إلى يومنا هذا. كما كان يمثل، أيضا، هاجسا كبيرا للنخبة الجزائرية، وهي تعاني الاستعمار الفرنسي بأشجع صورته، مع انهيار كامل لمنظومة القيم الإسلامية، التي كانت تحمي المجتمع الجزائري من المفاسد والشور، وتمنع تفككه وتسهم في وحدته وتدفع عنه تغول الاستعمار وهمجيته.

وقد أدرك محمد الهادي السنوسي الزاهري بحسه الوطني، وبحساسيته الشعرية المشكلة التي يعاني منها الشعب الجزائري، وذلك من خلال العمل الذي قام به. حيث تمكن من جمع المادة الشعرية لمجموعة من شعراء الجزائر وضمها في كتابه، وقد دعت هذه القصائد في معظمها إلى نهضة شاملة تعم جميع مناحي الحياة. كما بحثت في شروط إقامة هذه النهضة، وحثت على بذل التضحيات وتقوية الإرادات، لإعداد القادة المصلحين الذين يجيدون التعامل والتخاطب مع الشعب الجزائري والرد على مزاعم المستعمر وأكاذيبه بالحجة والبيان. وتضمنت أشعارهم، أيضا، دعوة الشباب لطلب العلم المادي واستخدام اللغة العربية الفصحى. ورغم أن النثر أفضل من الشعر في توصيل الموضوعات والمعاني إلى القارئ، لأن النثر يمتاز عن الشعر "بأنه طريقة من طرائق الفكر"¹، إلا أن الأجناس الأدبية الأخرى، لم تظهر في ذلك الوقت، كما هو عليه الشعر. ويمكن القول، أيضا، أن الشعر هو أقرب الأجناس إلى القارئ العربي من غيره. ومن هذا المنطلق جاء الكتاب يحوي على مجموعة من القصائد دون غيرها.

ويسعى البحث إلى مناقشة جملة من الأسئلة، لعل أهمها ما يلي:

ما هي النهضة؟ ما هي شروط إقامتها؟ وكيف نظر شعراء كتاب شعراء العصر الحاضر إلى النهضة؟ وما هي الإصلاحات التي أوصى بها هؤلاء الشعراء للوصول إلى النهضة؟ وما دور الحركة الإصلاحية بقيادة عبد الحميد بن باديس في التأليف الشعري الداعي إلى النهضة؟ ولإعداد هذا البحث، فقد اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي، لأنه يساعد على وصف الظاهرة المدروسة وتحليلها.

كما اعتمدت على مجموعة من المصادر والمراجع وهي كالآتي: كتاب شروط النهضة وكتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي لمالك بن نبي، وكتاب لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ لشكيب أرسلان، وكتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر لمحمد الهادي السنوسي الزاهري، وغيرها من الكتب الأخرى.

2 - تمهيد:

مر الوطن العربي والإسلامي بفترة من الانحدار الحضاري، وظهر ذلك من خلال تكالب القوى الغربية الاستعمارية على البلاد العربية والاستيلاء على مقوماتها المعنوية والمادية. وكانت بداية الصدمة الحضارية، قد حدثت أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر سنة 1798م، يومها تعرف العالم العربي على الانجازات العلمية التي حملها نابليون إلى مصر.

فقام محمد علي باشا بإصلاحات عديدة، قصد سد الفجوة التي حدثت بين العالم العربي والغربي بحجة التقدم الهائل الذي سبقنا به الغرب. فشجّع الصحافة وأنشأ المطابع وأرسل البعثات إلى أوروبا، وفتح الأبواب واسعة لاستقبال الحضارة الغربية. فانطلقت نهضة علمية وأدبية وفنية تحررت فيها العقول والأفهام من التبعية للفكر الكلاسيكي القديم.

وقد تشكلت على إثر ذلك مشاريع نهضوية في كثير من البلاد العربية، تمثلت في المشروع الإصلاحي السلفي، وقاده كلا من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وفي الجزائر تأسست جمعية العلماء بقيادة عبد الحميد بن باديس وضمت نخبة من العلماء أبرزهم: البشير الإبراهيمي والعربي التبسي- والطيب العقبي، كما انطلقت مشاريع حديثة، اقتبست معارفها وفنونها من الغرب وقادها كلا من سلامة موسى وطه حسين، واتسعت هذه النهضة، لتشمل الأدب وبقية المعارف والفنون الأخرى.

ووجد رواد النهضة في الأدب وسيلة لنشر- ما يرمي إليه علماء الأمة ومصالحها، لبث الأفكار الإصلاحية والتنويرية، وما يرغبون في توصيله بطريقة فنية لأفراد المجتمع، كإصلاح السياسية والاقتصاد والتعليم وقبل ذلك، توعية المجتمع برفض قيم الاستعمار وما يدعو إليه.

3 - إشكالات النهضة:

من المهم أن أشير إلى أن مؤلف كتاب شعراء الجزائر في العصر- الحاضر، قد اتسم جمعه للمادة الشعرية بالموضوعية ولم يكن اختياره اعتباطيا. فقد كان حريصا على أن يضم هذا الكتاب نخبة من الشعراء الجزائريين الذين اهتموا بالنهضة وسبل تحقيقها في الواقع الجزائري المأزوم. حيث اشتمل هذا الشعر على الفكر الذي يؤسس لهذه النهضة مع توضيح الوسائل التي يتحقق بها الإصلاح العام، ومن بين هذه الوسائل، إعداد القادة الدينين والسياسيين وتربية المرأة وتعليمها، وتعزيز دور الشباب وتشجيعه على طلب العلم النافع وجعله محورا تدور عليه حركة النهضة والاهتمام بالصحافة بغية نشر- الأفكار الإصلاحية وتعميقها على المجتمع الجزائري.

كما اعتنى الشعراء في هذا الكتاب بالدفاع عن اللغة العربية الفصحى والدعوة إلى استعمالها والابتعاد عن تهجينها بالكلمات الفرنسية.

وظهرت الفكرة الإصلاحية في الجزائر سنة 1925م، فوجدت من يقودها ومن يرعاها وبدا الشعب الجزائري يتحرك بعد سنوات طويلة.

وإذا كانت النهضة ضد التخلف والسقوط، فإنها تعد بذلك مظهرا من مظاهر التقدم والتطور، ومن شروط إقامتها أن تكون الفكرة التي تقوم عليها النهضة واضحة وقوية وقابلة للاستمرار، ويجب أن تشمل هذه النهضة جميع مناحي الحياة.

بعد أن وهنت الحضارة الإسلامية وعم التخلف والانحطاط سائر بلاد العرب والمسلمين، وضعف التزام المسلمين بدينهم، وساءت أحوالهم الدنيوية. اعتقد التيار الإصلاحي في المشرق والمغرب على السواء أن سبب هذا التخلف، إنما يعود بالأساس إلى أن الناس تخلت عن الإسلام واستسلمت لأهوائها. وذلك بعد أن رفع الإسلام راية المسلمين عاليا وخلصهم من الجهل، ودفع بهم إلى المدنية وأخرجهم من الحرب إلى السلم ومن الفرقة إلى الوحدة، تقهقر المسلمون وعادوا إلى الوراء مرة أخرى.²

ويعزو مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة إلى أن السبب الحضاري الذي قامت عليه الأمة العربية هو نفس السبب الذي سيقود الجزائر والعالم العربي والإسلامي إلى الارتقاء مرة أخرى في السلم الحضاري، يقول: "وإنه لتفكير شديد ذلك الذي يرى أن تكوين الحضارة بوصفها ظاهرة اجتماعية، إنما يكون في الظروف والشروط نفسها التي ولدت فيها الحضارة الأولى، كان هذا صادرا عن عقيدة قوية، ولسان يستمد من سحر القرآن تأثيره"³.

ويعد الشاعر "محمد اللقاني بن السائح" من أكثر الشعراء إشارة إلى ذكر النهضة في شعره، وهو يشيد في هذه القصيدة "بنادي السعادة" الذي أسسه نخبة من رجال الثقافة والفكر والعلم لمدينة قسنطينة، ويثني على دورهم الحضاري، يقول:

وقوفا يا بني وطني وقوفا على ساق العزيمة مسرعينا

نحي نخبة نهضوا وأضحوا على نادي السعادة عاكفين⁴

وقد دعا الشاعر المجتمع الجزائري أن يقف جنبا إلى جنب مع المساعي التي تقوم بها النخبة من إصلاح وحث للوعي وهو عمل يستحق الإشادة، لأن فيه كثير من التضحية والبذل والعطاء وذلك كله في سبيل نهضة الأمة.

ولقيام هذه النهضة، كان لا بد للشاعر، أن يعترف بأمراض مجتمعه وما لحقه من تخلف على أيدي أبنائه، الذين اختاروا حياة اللهو والمجون على حياة العمل والجد والمثابرة، فصارت الجزائر مرتعا للجهل والفقر، يقول:

بني الجزائر هذا الموت يكفيننا لقد أغلت بجل الجهل أيدينا

بني الجزائر هذا الفقر أفقدنا كل الذائد حينما يقتضي حينما
بني الجزائر هذا اللهو أوقعنا في سوء مملكة عمت نوادينا⁵

وإزاء هذا التخاذل والتكاسل وانعدام روح المسؤولية لدى أبناء الأمة، كان لابد للشاعر أن يأمل في ظهور قائد ملهم قوي، يقود الأمة إلى نهضة، تتخلص فيها من الهوان والتهمر الذي هي فيه، يقول محمد اللقاني بن السائح:

فهل لك يا جزائر من أي يعز عليه قدرك أن يهونا
يفار عليك من ضمير وذل ويحميك حمى الأسد العرينا⁶

4 - الإصلاح الديني:

من المعروف أن الزوايا الصوفية، قد انتشرت في ربوع الجزائر، وأسهمت في نشر الإسلام وترسيخه، وقاومت الاحتلال الفرنسي ودفعت بخيرة رجالها إلى ساحة الاستشهاد. إلا أن معظم هذه الزوايا استمالها الاحتلال الفرنسي وحاول احتواءها وإدخالها بيت الطاعة وجعلها ناطقة باسمه. وقد مكنت فرنسا لهذه الزوايا كل ما تحتاجه من الدعم المادي والمعنوي، لتبث سمومها في أوساط الشعب الجزائري. ولعل أخطر ما روجته هذه الزوايا من أفكار، هي فكرة: أن فرنسا قدر نازل وأن هذا القدر لا يمكن تغييره إلا أن يشاء الله. وكان هذا سببا، ليعلن التيار الإصلاحى الحرب على الطرق الصوفية المنضوية تحت الاحتلال الفرنسي. ومن ناحية أخرى فقد انحرفت عقيدة الجزائريين في ظل هذه الحركات الصوفية، فصار المجتمع متعلقا بالأضرحة، وإقامة المهرجانات الماجنة داخل بيوت الله، بدل اللجوء إلى الله عز وجل وطلب عونه.

فحمل التيار الإصلاحى على عاتقه تصحيح عقيدة الجزائريين، ودعوتهم إلى التوبة والعودة إلى منابع الشريعة الصافية.

كما شكّل الاستعمار على الجزائر نكسة نفسية، فاستشعر العلماء والمصلحون في المشرق والمغرب على السواء بالهوة العميقة التي تفصل العالم الغربي بالعالم العربي من "ناحية التطور العلمي"، حتى كان وقع هذه النكسة شديدا على الإصلاحيين، لذلك دعا هؤلاء العلماء إلى أن يقتبس المسلم من الحضارة الغربية وأن يأخذ بالجانب الايجابي منها، دون أن يؤثر ذلك شيئا على إسلام الفرد واثائه للأمة، يقول نعيم اليافي: "إن الدين الاسلامي ليس دين عبادة وعلاقة معرفية بالرب، يهتم بقضايا العقيدة والايمان فحسب، وإنما هو دين حضارة، يهتم بالقيم الحياتية للإنسانية وللأمة وبالقيم الذاتية للفرد"⁷، وتعد هذه الفكرة سابقة جديدة، بعد أن كان العلماء في السابق، يتحفظون على كل ما يأتي من الحضارة الغربية.

ويرى الشاعر محمد اللقاني بن السائح، أنه من الواجب أن يكون رجل الإصلاح الديني الذي تتطلع إليه الأمة أن يكون سديد الرأي، قوي العزيمة لا يخاف إلا الله عز وجل وقد نذر روحه لله وسخرها لخدمة أمته، فهو يوجه الناس إلى التمسك بالدين القويم والسير على هدي النبي (ص). ليدفع بهم إلى الأخذ بأسباب العزة والنصر، مثلما فعل المسلمون الأوائل عندما أسسوا مدنا، كحاضرة بغداد، يقول محمد اللقاني بن السائح:

واشرح رغائب أمة في شخصكم رأت السداد
واهرع إلى الأحرار في كل البلاد وكل ناد
فلسوف تحظى بالمني ولسوف تظفر بالمراد

...

تعالوا إلى الدين القويم وهديه فلإني أرى الإصلاح في سنة الهاد
تعالوا إلى العلم الصحيح فإنه يجدد في الأبناء نهضة بغداد
تعالوا إلى نشر المعارف بينكم وكونوا على حياضها خير وراذ⁸

وكان من الطبيعي، بعد أن خفتت المقاومة الشعبية واستسلم الأمير عبد القادر الجزائري، أن يأمل المجتمع الجزائري في ظهور عالم رباني مصلح، يبعث العزيمة في النفوس، ويقوي العزائم ويبعث الأمل في النفوس، يقول محمد اللقاني بن السائح:

بني وطني هل من عقول كبيرة؟ تقوم أمام الضيم وقفة أطواد
بني وطني هل من شيوخ أجلة؟ غدو في سماء العز كعبة قصاد
يذبون عن حوض الشريعة كلها أناط بها الأعداء شبهة حساد
بني وطني هل من خطيب مدرب يحرك أرواحا بمقولة الضاد⁹

ومن المعروف أن المستبد، يخاف من المصلح الذي يعرف جيدا كيف ينهض بالأمة من سباتها، ويث فيها الأمل وي طرح عنها الخوف ويشحذ عزميتها. خاصة إذا كان هذا المصلح، يجيد الخطابة الأدبية ويوظف علوم الحياة ويعرف حقوق الأمم والتاريخ المفصل ونحو ذلك مما يساعد على تكبير النفوس وتوسيع العقول.¹⁰

وقد عمل الاحتلال جاهدا على ضرب مقومات الشخصية الجزائرية في صميمها. وهو يعلم جيدا أن الذي أيقظ هذه الأمة ووحدها وشحذ عزميتها ومكنها من القيام بعد السقوط وعلمها مقارعة الأعداء في الماضي، إنما هو الإسلام. لذلك سعى الاحتلال إلى زرع فكرة، أن الإسلام لم يعد مصدرا للإشعاع الفكري والحضاري، وإنما صار مصدرا للتخلف، خاصة وأن المجتمع الجزائري رأى بنفسه التقدم الغربي في الوسائل المادية التي جاء بها المحتل لإخضاعه، وهو جاثم على مقدرات الأمة بفضل هذا التطور، يقول محمد اللقاني بن السائح:

وقالوا بأن الدين أصبح عاطلا عن السير في عصر من النور وقاد
وقالوا هدى الإسلام جاء مؤخرا لهم عن مجارات الأجانب بعاد
وهل يهتدي من كان بالله هديه بعشواء لا تلوي على غير معتاد¹¹

بعد أن ادعت فرنسا، بأن الإسلام لم يعد صالحا لكل زمان ومكان وأنه خرج من السباق الحضاري وصار علامة على التخلف. حاول الشاعر بن السائح أن يفند أقوالها، في الأبيات السابقة، ليثبت بأن مزاعم فرنسا ليست إلا مجرد كلمات صادرة عن محتل حاقد، وأن النهضة الحقيقية، إنما تتمثل في التمسك بعري الإسلام. وهذا ما يؤكد العلماء المسلمون أنفسهم، بأن السبب وراء تخلف المجتمعات العربية والإسلامية، إنما يعود إلى

السبب الذي رفع الأمة ومكنها من الحضارة والتقدم، يقول جمال الدين الأفغاني: "إنما يكون علاج الأمة الناجح برجوعها إلى قواعد دينها. والأخذ بأحكامه على ما كان في بداياته"¹².

ولكي يشعر الجزائريون بالإحباط واليأس، نتيجة الخيارات الدينية والسياسية المنتهجة. مارس الاحتلال كعادته سياسة المنع والإقصاء وسياسية نشر الفساد وإثارة الشحنة بين الناس، لينسى المجتمع الجزائري، وهو يعاني الفقر والظلم والتشريد والتهجير من أرضه، أن يكرس وقته وجهده في طلب المجد، الذي يكون "ببذل مال للنفع العام ويسمى مجد الكرم، أو ببذل العلم النافع المفيد للجماعة ويسمى مجد الفضيلة، أو ببذل النفس بالتعرض للمشاق والمخاطر في سبيل نصرة الحق ويسمى مجد النبالة"¹³، كما يؤكد عليه الشاعر في قوله:

بكيك على قومي لضعف نفوسهم على حمل أثقال العلى

...

بكيك عليهم إذ نسوا كل واجب ومالوا إلى حب الهوى والرذائل

...

رضوا بحياة النذل والجهل والكرى عن العلم فروا والحجا والمكارم
كفانا كفانا فالحياة تبدلت ألا اختاروا ما يجلو بخير الوسائل¹⁴

ومن الطبيعي أن يقابل كل إصلاح من قبل المحتل بالرفض، ويسعى لتشويه المصلحين، بل ويسعى إلى سجنهم ونفيهم وقد يسلط عليهم من أبناء جلدتهم من يناصبونهم العدا، لأن "العالم المصلح هو من يجاهد ليوقظ النيام، ويدعو للإيمان وللعلم وللإصلاح وللعمل، فيحرق العقول من الخرافات والأوهام، وينهى الناس عن عبادة القبور والأشجار، والاستنجاد بالدجالين، والمشعوذين"¹⁵، يقول محمد اللقاني بن السائح:
إذا ما رام مصلحنا نهوضا أباحوا بالعداء مجاهرينا¹⁶

5 - الإصلاح السياسي:

سعت سلطات الاحتلال إلى تدجين الشعب الجزائري، وإدخاله إلى اللعبة السياسية من خلال الأحزاب الوطنية التي تشكلت في تلك الفترة. وكان الاحتلال يعد الجزائريين بمنحهم الحرية في بلدهم والعيش فيه بكرامة، غير أنه في كل مرة، يكتشف الشعب الجزائري غدر الاحتلال الذي يعد ولا يفني بوعوده. لذلك نجد الشعراء الجزائريين، يعلمون كيد المحتل ويقومون بفضح أساليبه المتتوية، يقول أبو اليقظان:

إن أهل الغرب خطوا خطة لبني الشرق بدت منها خفايا
بدت البغضاء من أفواههم وهي عنوان على ما في الطوايا

....

لا تته يا غرب فالظلم له أمد إن حل حلتك بلايا
فبنوك الصم عاثوا ويغوا فأثاروا عنهم كل الرعايا¹⁷

كما عملت الحركة الإصلاحية على نشر الوعي السياسي في المجتمع الجزائري، فطالبت المحتل بالحريات العامة ورفضت سياسة التجنيس والتنصير وقامت بالمحافظة على الهوية الوطنية المتمثلة في الإسلام واللسان العربي.

غير أن الاحتلال لا يتغير، فهو يرفض إعطاء الحريات ويقوم بمصادرة الحقوق وسجن السياسيين والتضييق عليهم، يقول الشيخ الطيب العقيبي:

كم أرهقونا وسيف البغي منصلت وأوسعونا هوانا من تجافينا¹⁸

وبعد أن كانت الأمة الإسلامية، قبل تقسيمها والسيطرة عليها، أمة محابة وكلمتها مسموعة في أرجاء المعمورة، صارت مهانة وذليلة وصارت الدولة القطرية دولة ضعيفة مستعبدة، بعد أن ابتعدت عن عقيدتها وصدقت ادعاءات المحتل وسلكت طريقا غير طريق الله، لم يبق من أمل لهذه الأمة سوى أن تتوحد وتجمع شتاتها حتى يرفع شأنها من جديد. ومن جهة أخرى، فإن الإنسان العربي، كما يرى الشاعر مفطور على كرهه للظلم ويأبى إلا أن يعيش الحرية كاملة غير منقوصة، يقول الشيخ الطيب العقيبي:

بالله يا مبتغي الإصلاح إن عرضت لكم سوانح من فكر تواتينا

عرج على قطرنا وانظر لحالته فخاله اليوم بين الناس تخزينا

....

بالأمس كنا ملوكا في عروشهم واليوم صار قصي الدار يقصينا
هذا جزاء الأولى عن دينهم صدقوا واعرضوا عن حدود الله نائنا

...

يا معشر القوم هبوا من سباتكم طال الزمان وما غنى مغنينا

...

ما هكنا شيم العرب الكرام ولا هم قبلنا ولدوا الحق المجانينا¹⁹

6 - النهضة والعلم المادي:

سبب الاحتلال الفرنسي للجزائر صدمات كثيرة، لعل أخطرها تتمثل في اكتشاف الجزائر لمدى التخلف الذي حل بها نتيجة للانحدار الحضاري والثقافي الذي وصلت إليه الأمة الإسلامية، بالإضافة إلى ما قام به الاحتلال الفرنسي في الجزائر، من سياسة التجهيل وغلغ المدارس العربية وإقصاء الجزائريين عن الحياة اليومية للمستعمرين الفرنسيين، الذين كانوا يعيشون حياة مترفة تاركين أبناء البلاد عرضة للمرض والجهل والتشرد. ويقدم محمد السعيد الزاهري صورة حزينة عن الوضع المخزي الذي يجياه وطنه، حيث يقول:

وقد لبس الناس العلوم جديدة ونحن لبسناها من الخلق البالي²⁰

ويجري الشاعر محمد اللقاني بن السائح، بعد ذلك، مقارنة بين الأمم الصاعدة وبين أمته التي هي في آخر الركب، ليخلص إلى أن العالم قد قطع أشواطاً كبيرة في التقدم، أما العالم العربي، فقد تقهقر إلى الوراء، يقول:

الناس بالعلم شقوا الأرض واخترقوا وشيدوا وبنوا عزا وتمكيننا
الناس في الجو طاروا وحلقوا وعلوا ونحن نحسبهم جهلا شياطينا
الناس بالعلم نالوا كل مكرمة ونحن بالجهل لا يرجى تلافينا²¹

ولذلك، فإن أي نهضة قادمة، لا بد لها من الاهتمام بالعلم وتشجيع المتعلمين على تعلم العلم النافع وتوظيفه فيما يفيد، لأن الأمم الأخرى، إنما سبقتنا بالعلوم التي غفل عنها المجتمع العربي. ففي القرن العشرين من الزمن الأخير للخلافة العثمانية لا تكاد تجد من يصلح ساعتك ناهيك عن قلة المشتغلين بالعلم المادي، عدا من كان مهتما بالعلوم الشرعية وهذه الأخيرة ليست كافية لإقامة النهضة، يقول الشيخ الطيب العقبي:

تعلموا العلم وامشوا في مناكبها وجانبوا كسلا أودى بماضينا
وزاحموا الغرب في الدنيا ولذتها وجددوا عصر عز في تعالينا
ما كان قط حراما في شريعتنا سير بأوطاننا فيما يرقينا
هذي بلادكم تنزوا لنهضتكم وكثر ثروتكم لا زال مخزوننا
لا تهملوا خدمة الأوطان واتحدوا فباتحادكم الأوطان تدنينا²²

والمشكلة أن العوام من الناس في العالم المتخلف، قد انصرفوا عن طلب العلم، وبدلوا أموالهم وأوقاتهم في طلب الملذات. فيما يقضي- العالم الغربي معظم أوقاته في طلب العلم أو العمل في الصناعة أو في الزراعة ويخصص القليل من الوقت لراحته، بينما يعيش الإنسان العربي فارغ اليدين حيث يهمل وقته ويصرفه في اللهو. وهذا ما نبه إليه مالك بن نبي في أن العالم الغربي يتم بالزمن لانجاز ما يريده، حيث يقول: "لا جدال في أنه في مقابل وتيرة الزمن المحيطة بالإنتاج في البلاد الصناعية، هناك الزمن منقطع في البلاد المتخلفة"²³، يقول الشاعر أحمد كاتب بن الغزالي عن حضارة الغرب:

وتتهم بالأمر حاضره وآتية والعلم منه يذاع
ونحن ويا أسفي عكف على نقر دف وصوت سماع
ومن قام منا لإرشادنا وسعناه شتما بدون انقطاع²⁴

لقد باتت المجتمعات الغربية المتعلمة، تتحكم في بقية الأمم وتفرض عليها سطوتها، لذلك يدعو الشاعر رمضان حمود أمته، لكي تنهل من العلوم والمعارف، حتى يكون لها نصيب بين الأمم وتنال الشرف والمجد والقوة، يقول:

وما المرء إلا بالعلوم معظم ولا نال بالإهمال أعلى المنازل
ولا ساد قوم همهم في تراهم ولا خير يأتهم بأحلام نائم²⁵
وما ضاع حق خلفه من يريده ولا مات شعب أو هوى بالمطالب

ومن واجب الشعراء أن يجربوا الناس بعيوب أمتهم، حتى يستقيم حالها ويصلح شأنها. ومما لاحظته الشاعر أحمد كاتب بن الغزالي أننا أمة تهتم بما يشبع بطنها، بينما الأمم الأخرى تهتم بما يشبع فكرها ويروي عطشها للمعرفة. ولذلك يرجو أن تنقلب هذه الصورة، ليصير الإنسان العربي ساعيا للعلم منفتحاً نحو الغرب يأخذ منه

ما حسن، دون أن ينسلخ عن عقيدته ويتخلى عن شخصيته، ولكي يكون قادرا بعد ذلك على الاختراع، يقول:

أكب على العلم عشاقه ولم نبرح الدهر نهوى القصاع
فهم في الحقيقة أقوم نهجا وهم بالمعارف قوم شباع
ألا ليت شعري وبأ ليتني أرى العلم دابا وأبقى متاع
فيحيي الفكر والاعتناء ونعني بمعرفة واختراع

...

دهانا الفساد وساد البلا أما للقبائح منا اقتلاع²⁶

ثم إن محمد الهادي السنوسي الزاهري، قد اختار شاعرا فطنا في كتابه وهو الشيخ الطيب العقبي، الذي يرى أنه لا قيمة للعلوم النظرية بدون أن يكون لها تطبيقات عملية تنفع الناس في واقعهم، يقول:

لا بر من يدعي في العلم سابقة ولم يقيم بدروس العلم تمرينا²⁷

كما يذكر الشيخ الطيب العقبي شباب عصره بما حققه الأجداد الأوائل من معارف وعلوم أدهشت العالم، لعلها تحفزهم وتدفع بهم إلى الاجتهاد، يقول:

وأذكر حديث جدود قبلنا سلفوا عسالك بالعلم بعد الجهل تحيينا²⁸

ثم يستنكر الشيخ العقبي الواقع المؤلم، الذي وصلت إليه الأمة والمصير المجهول الذي ينتظر الأجيال القادمة، بعد أن كانت شمس العرب تسطع على العالم، فصارت تلك الانتصارات مجرد أطلال نبكي عليها، يقول:

وقف بنا نندب الأطلال بعدهم فالشعب قر بما أبقوا له عينا

...

كانت منازلنا في العز شامخة لا تشرق الشمس إلا في مغائنا

...

كم أمة أصبحت تعلق بعزتها كانت لنيل العطا قدما ترجينا²⁹

ويضيف محمد السعيد الزاهري مجموعة من النصائح العامة لطلاب العلم، حتى يصبروا على طلب العلم والاستفادة مما تعلموه وفهموه، فيوصيهم بالمواظبة وشحذ المهم، فإن العلم لا يحصل إلا بالتعب والسهر والمداومة وبذل الجهد العظيم والتضحية الثمينة، يقول الشاعر:

وكن في ابتغاء المجد يا نشء صابرا فما انقادت الآمال إلا لصابر

ولا مجد إلا العلم يطلبه أخوا عزائم تزري بالسيوف البواتر³⁰

7 - اللغة العربية:

تعرضت اللغة العربية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي - إلى المسخ والتشويه والتضليل والاقتصاص من الجذور، واعتبرها الاحتلال لغة أجنبية في بلادها وحاول إحلال لغته حتى ينسى - الجزائريون لغتهم. وقد

رصد ميزانية وموارد بشرية لتمكين لغته، بالإضافة إلى أنه أغلق المدارس العربية وشرّد معلمها وأقدم على هدم المساجد ودجن الزوايا وحمل عامة الناس. ولم يسمح للجزائريين بتعلم لغة المحتل. وكان يهدف إلى فصل الجزائر عن محيطها العربي والإسلامي، ولم يقف الجزائري مكتوف الأيدي، فبنى المساجد وأعاد فتح المدارس العربية وأرسل طلابه إلى جامع الزيتونة والقرويين والأزهر. كما أسهمت جمعية العلماء الجزائريين في إعادة اللغة العربية إلى مكاتها، من خلال ترسيخ العقيدة الإسلامية في نفوس الأبناء والتشديد على استعمال اللغة العربية. وقد تجاوب الشعراء الجزائريون مع هذا الهدف الأسمى شعرا، فيقول محمد الهادي السنوسي الزاهري في إحدى قصائده:

هبوني يراعا يبعث الميت في البلى ويبعث من تحت الجنادل أقبالي

على اللغة الفصحى وإعلاء شأنها وترديد ذكراها أعاقب أشغالي

إلى لغة الذكر الحكيم ومصدر النواميس في عصري وفي العصر الحالي³¹

ومن المعلوم أن فرنسا قامت بأعمال تخريبية لمحاربة العربية الفصحى، حيث اهتمت باللغة الدارجة فأوجدت قواميس وكتبا للعربية الدارجة وكتبا لنحو العربية الدارجة مثل كتاب أرنيوس، ثم إن فرنسا ومن كان ينطق باسمها من أبناء جلدتنا حاولت تشويه اللغة العربية، فقد أشاعت بأن العربية ليست لغة علمية وأنها عاجزة عن حمل المصطلحات العلمية الجديدة، مثلما يوضحه الشاعر محمد اللقاني بن السائح، فيقول:

ها هي أم اللغى تنعى لمصرعها ها هي ألقاها تبكي وتبكي

خلطتموها بألفاظ مشوهة ولم تقموا لها يوما موازينا

صارت شبيهة أثواب مرقعة تضم من خرق طمر ملاينا

وصفتموها بضيق في النطاق وقد كنتم على وصفكم قوما ملومينا

بل هي لغات الأرض أجمعها كل لها عند ضيق اللفظ يأتينا³²

ويبدو واضحا أن الحركة الإصلاحية، قد انصب اهتمامها على اللغة العربية الفصحى، لأنها عنصر مهم لإقامة النهضة. وهذا ما جاء على ألسنة الشعراء تأكيدا لمكانة العربية ودورها في تشكيل هوية المجتمع الذي لن يكون قادرا على الإبداع إلا في إطار لغته الأم.

وكان الشيخ البشير الإبراهيمي، قد وجه دعوة إلى الكتاب للالتزام بنهج الجمعية والاهتمام بقضايا الأمة: "أممكم اللغة وعلومها وآدابها، فاجشوا ونقبوا واخذوا ركابها، واسعوا لبيان فضلها سعيكم لتعليمها، وأشربوا قلوب أولاد هذه الأمة أنه ما عزد بلبل بغير حنجرته"³³.

8 - دور المرأة:

تمثل المرأة دورا مهما في نهضة المجتمعات، لأنها تشكل نصف المجتمع، لذلك حاولت الحركة الإصلاحية معالجة قضاياها الدينية والاجتماعية والثقافية ودعت إلى تعليمها، خاصة، بعد أن أصبحت أداة طبيعة في أيدي المشعوذين والطريقين. وصارت تحضر- الحفلات "الزردات" في المساجد، حيث تنتهك الحرمات. ويدعو

الشاعر محمد الهادي السنوسي الزاهري أولياء البنات، أن يبادروا بتعليمهن حتى يتمكن من تربية أبنائهن في المستقبل، تربية تليق بتطلعات المجتمع، يقول:

أنا بنات الشعب في أمة ملكت رؤوس الناشئات خمودا
ومشت بها في الناشئين جمالة صاروا بها بين الفرنجة دودا

...

ناشدتكم بالله والرحم التي في الكتب مجد ذكرها تمجيذا
أن تبعثوا للعلم في أبنائكم روحا ومن كيس المشح ثقودا
تحى البلاد بالعلوم تفتحت زهراتها بين الديار ورودا

...

وتعاهدوا في الصالحات فإنها أجدى إذا ما شئتم التجديدا³⁴

من خلال هذه الأشعار الواردة في الكتاب، فإن المرأة تمثل عنصرا مهما لقيام أي نهضة، فهي التي ينشأ عندها الأطفال، فتغذيهم بالحنان والعطف وترعاهم بالأخلاق الفاضلة وتعلمهم ما ينفعهم.

9 – دور الصحافة:

انتشرت الصحافة العربية في الجزائر ما بين (1925م – 1954م)، كجريدة الشهاب وصدى الصحراء والحق، ولكن الإدارة الفرنسية - كعادتها - ضيّقت الخناق على هذه الصحف.

وكانت أغلب المقالات إصلاحية سياسية، تسيّر وفق ما حدده عبد الحميد بن باديس. وقد أصدر المصلحون بعد تأسيس جمعية العلماء سنة 1931م أربع جرائد متتالية هي؛ السّنة والشريعة والبصائر بهدف نشر أسس الإصلاح.

وكانت تهدف هذه الجرائد إلى غرس الهوية الجزائرية، كتنشيط العقيدة في النفوس وتمكين اللغة العربية على ألسنة الأبناء، ورفض قيم الاحتلال وسياسته الاستعمارية. ولاشك أن رواد الحركة الإصلاحية كانوا مستقلين عن السياسة الاستعمارية، فكانت صحافتهم كما، يقول أحمد كاتب بن الغزالي:

وهذي صحافتنا حرة لها في البلاد صدى وشعاع

فطالع نجاحك ثم انتقد وكن للمعارف حلف اطلاق³⁵

ويعد الشاعر أبو اليقظان من مؤسسي الصحافة المكتوبة، فقد أسهم في إصدار العديد من الجرائد، منها:

وادي ميزاب، المغرب، النور وغيرها.

ويؤمن هذا الشاعر بالدور الذي تلعبه الصحافة في نهضة الأمة الجزائرية، وقد سعى من خلال تلك الجرائد إلى إعادة الاعتبار للشخصية الجزائرية، وتنقيف وتنوير العقول وتكوين المجتمع تكويننا صحيحا متشبعا بالأخلاق الفاضلة والأفكار الصحيحة.

كما كان يسعى إلى تأييد الحق والحرية والعدالة، وبث روح التضامن والاتحاد بين أبناء الوطن الواحد، ونبذ الفرقة ومقاومة الرذائل ونشر الفضيلة، يقول أبو اليقظان:

إن الصحافة للشعوب حيا والشعب من غير اللسان مواتة
فهي اللسان المنفصح الذلق الذي بيانه تتدارك الغايات
فهي الوسيلة للسعادة والهنا وإلى الفضائل والعلا مرقاة
ففيها الأمم الضعيفة ترفع الرغبات منه وتبلغ الأصوات
هي معرض الأعمال برهان على مقداره بل إنها المرأة³⁶

10 - خاتمة:

ركز محمد الهادي السنوسي الزاهري في جمعه للمادة الشعرية على الشعراء الذين اهتموا بالنهضة وما رافقتها من حركة إصلاحية، وباعتبار أن هؤلاء الشعراء من التيار الإصلاحية، فإن جملهم قد استقى أفكاره من هذا التيار الذي ارتبط بالمشرق العربي فكرا وأخلاقا. ومن ناحية أخرى فقد اهتم هؤلاء الشعراء بالوسائل التي تحقق النهضة؛ كالإصلاح الديني والسياسي والتعليم وتربية المرأة والصحافة، غير أن ما يلاحظ على المادة الشعرية في الكتاب، هو اهتمام الشعراء بقضية العلم المادي والتأكيد على طلبه، ربما لشعور صاحب الكتاب بأن ما ينقص هذه النهضة هو العلم المادي.

هوامش:

¹ جان بول سارتر: ما الأدب؟ تر: محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ص 21.

² شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ مكتبة رحاب، الجزائر، 1989، ص 35.

³ مالك بن نبي: شروط النهضة، تر: عمر كامل المسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، ط 18، 2019، ص 28.

⁴ محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، الجزء 1، المطبعة التونسية، تونس، ط 1، 1926، ص 40.

⁵ المصدر نفسه، ص 36.

⁶ المصدر نفسه، ص 39.

⁷ نعيم اليافي: حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط 1، 2000، ص 47.

⁸ محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 45.

⁹ المصدر نفسه، ص 46.

¹⁰ عبد الرحمان الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص 43.

¹¹ محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 48.

¹² نعيم اليافي: حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة، ص 50.

¹³ عبد الرحمان الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص 53.

- ¹⁴ محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 173، ص 174.
- ¹⁵ محمد نسيب: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، الجزائر، ص 36.
- ¹⁶ محمد الهادي السنوسي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 40
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص 118، ص 119.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص 133.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص 134.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص 69.
- ²¹ محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 37.
- ²² المصدر نفسه، ص 135.
- ²³ مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 15، 2018، ص 22.
- ²⁴ محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 166.
- ²⁵ المصدر نفسه، ص 175.
- ²⁶ محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 167.
- ²⁷ المصدر نفسه، ص 133.
- ²⁸ المصدر نفسه، ص 131.
- ²⁹ محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 132.
- ³⁰ المصدر نفسه، ص 75.
- ³¹ محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 193.
- ³² المصدر نفسه، ص 37، ص 38.
- ³³ البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1997، ص 211.
- ³⁴ محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 196.
- ³⁵ المصدر نفسه، ص 166.
- ³⁶ المصدر نفسه، ص 115.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - جان بول سارتر: ما الأدب؟ تر: محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.
- 2 - شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ مكتبة رحاب، الجزائر، 1989.
- 3 - البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1997، ص 211.
- 4 - عبد الرحمان الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، موفم للنشر، الجزائر، 1991.
- 5 - مالك بن نبي: شروط النهضة، تر: عمر كامل المسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، ط 18، 2019.

- 6 - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط15، 2018.
- 7 - محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، الجزء1، المطبعة التونسية، تونس، ط1، 1926.
- 8 - محمد نسيب: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، الجزائر.
- 9 - نعيم اليافي: حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة، مركز الإمام الحضاري، حلب، سوريا، ط1، 2000.